خروج إجباري
رحمة صديق كباس بابكر

رواية

خروج إجباري

الكاتبة رحمه صديق عباس بابكر

الحياة كانت طبيعية والجو جميل، ومعتدل أشبة بفصل الربيع، عندما جلستُ تحت الشجرة أنظر إلي السماء بلونها الصافي الممزوج ببعض السحب المائله للون الرمادي.

إعتدت مشاهد طبيعة الكون الجميلة الخلابا وتلك الطيور بأنواها المختلفة...

تأتي بحركات بهلوانية وأخري كالرموز مترابطة مع بعضها ، تأملتُ الطبيعة جيداً....

ثم دخلت إلي غرفتي أغلغت النوافذ، وجلست في مكتبتي الصغيرة أخذت ورقة وقلم وبدأت أكتب فإذا بصوت ضجيح في الخارج!

لم أكترث لهذا الصوت في البداية، ولكنة بدأ يزداد ويزداد ...

فقمت من مكاني لأري ماذا يحدث يا إلهي!

إنه مثل الكابوس المخيف، كابوس ليس له مثيل..

هناك الكثير من الباصات السفرية جاءت بداخل المدينة لتمر وليس بعاداتها ما الذي يجري؟

سمعت أُناس يقولون أن هناك عدو في طريقة إلينا، وهم

يريدون الفرار قبل أن يصلوا.

عندها شعرت بشئ في قلبي.....

اه وياله من شعور كأن جسدي مكبل لايستطيع الحراك وقفت وأنظر وعيناي تكاد لا تتوقف من إنهيار الدموع...

وفعلا جاءو في اليوم التالي وصلو بأعداد كبيرة نحن لا نعرف حجم الخطر الذي يحيط بنا، إلا عندما بدأو في الإ نتشار.

وأصبحنا نبحث عن طريق الهروب فلا خير فيهم.

إنقطع التيار الكهربائي وأنقطع معه الأمن والسلام، والراحة، وأنتشر الخوف والرعب .

ونحن لم نفكر في الخروج بعد ظناً منّا أن الوضع سيتحسن وسيكون كل شيء بخير ولكن الوضع غير ذلك تماماً...

لم نستطيع أن نبقي أكثر وأصبح الخروج صعباً والبقاء أصعب.

في ذلك اليوم، كانت الحياة كارثية وصدمة واقعية...

لم أفهم شيئًا وقتها، أصبحت مشتتة وعاجزة عن فعل شيء...

كل ما إستطعت فعله هو الخوف، لم يكن لدي ما أقدمه، فليس لدي القوة الكافية لأفكر في شيء أفضل من كيف سنخرج؟ ومتي وأين سنذهب؟

إنهارت قواي وتكاثرت مخاوفي، فصار العيش هنا محال..

كيف تكون خائفًا وأنت في بيتك...؟ كيف تنام؟ من غير أمان ولا اطمئنان!

مثل ثور هائج أتى وأجبر الناس على الرحيل.... مثل عاصفة جاءت تضرب سكان البلدة ، فلا مأمن عندهم إلا عند الخروج.

مثل الكلاب الشرسة التي تهاجم الكل بدون شفقة، وتقضي على كل شيء أمامها....

لطالما أردت الخروج والسفر، ولكن ليس بمثل هذه الطريقة.

خرجنا تاركين أعز الأشياء لدينا، لم يكن بمقدورك أن تحضر معك شيء، وحتى إن أخذت، سيسلبونك إياه في الطريق، تخرج إجباريًا عنك، ويؤخذ حقك أمام عينك وربما قتلوك.

وأخيرًا، عندما وصلنا إلى المكان الآمن أخيرًا، تريد أن تنام في سور المنزل، وتتقلب يمينًا ويسارًا، ما الأمر يا ترى؟

لا تستطيع النوم؛ لماذا؟!

فهناك كابوس مخيف، نعم هو نفسه الذي أخافنا وجعلنا نبقى لاجئين هاربين من بيوتِنا تاركين كل شيء وراءَنا.

أما آن له أن ينتهي؟ أما آن أن يحل الأمن والسلام في بلادنا ؟

إلى متى سنبقى هكذا؟

أصبحنا بؤساء في بلاد يحكمها رؤساء يتنازعون على كرسي، أم ماذا لا أدري؟!

الشيء الوحيد الذي أدركت أن لي وطنًا أحببته كثيرًا، حتى لم أفكر يومًا بمفارقته، ولكن!

هناك خروج إجباري، رغمًا عنك.

أعلم أنه لا يوجد مكان أفضل من بلادك، بلادي أنت عندي أجمل شيء، أنت الوطن العزيز الحنين الذي حبه تملك قلبي، أنت الملاذ الآمن الذي وجدت نفسي فيه وأحببته ولا أريد أن أتخلى عنه... ما سبب ما يحدث؟

لم أعد أفهم شيئًا، وقتَها عندما بدأت دموعي بالانهيار... وبدأت أبحث عن سبب ما يحدث؛ ولماذا يحدث؟

أصبح رأسي ثقيلًا، مثلما أني كنت في دوامة، ورأسي مفتول من صداع الدوران ....

وأنفي يكاد يستنشق ماءً لا يعرف كيف يوقفه، يكاد يقتلني، وكأن جسدي مقيد، لم أستطع المقاومة، كل ما فعلته تركت عقلي يفكر :

ما الذي يجري... وأين أنا؟

ما هذا المكان الذي نجلس فيه؟

حتى قلبي توقف من شدة الخوف...

هل ما يجري حقيقة أم خيال؟

هناك أشياء كثيرة تركتها عندما قمنا للخروج، وذكريات كثيرة ، تحطمت آمال كثيرة.

في تلك اللحظة فقط؛ عندما قطعنا الطريق، حاولت جاهدةً أن لا أفكر في شيء، وهناك المئات من الكلمات تتراقص في مخيلتي، لا أستطيع البوح بها، والكثير من الدموع التي تحرق جفوني تريد أن تسقط كالشلال ولا تستطيع الخروج.

حينها، كنت بحاجة ملحة لأن أصرخ بأعلى صوتي وأبكي.

اشتاقت روحي للحرية، ولكنّي لم أجدها في ذلك الوقت...

عندها نظرت إلى السماء وابتسمتُ، أخفي حزني عن الجميع ، وما زال قلبي مثقلا ً بالحزن حتي إستطاع أن يظهر بؤس وجهي، فصار كالمجسم الذي لا روح فيه.

أصبحت لم أعد أطيق الحديث ولا الضحك ولا المرح، فكل شيء صار ليس لة طعم.

وسألت نفسي مجدداً هل هذا حقيقة أم خيال ؟

عندما لا أصدقه أعتبرة خيالًا

إشتقت إلي روحي المرحة التي تؤنسني وتسكن داخلي وتوضح شتاتي وتقول لي:

"أجمعي شتاتك، وأنيري شمعة حياتك، لا تفقدي جمالك، فكل

هذا لا قيمة له بالنسبة لِراحتك".

أنظر إليها، وكلامها لامس قلبي، وأصبح مثل بلسم الجرح عندما كان يهمس في أذني...

شعرت بالإسترخاء ، وأمتلأ قلبي بالرضا، وبدأت روحي تتوازن مع عقلي.

عندها استيقظ، وأجد نفسي أحلم، لقد كان حلمًا واقعياً، لا أدري كيف ! لقد كان حقيقة كالخيال.

وعندما تكون الحقيقة أقرب للخيال أقول:

إنه خيالي أفكاري بدأت تسيطر على عقلي، فلم تترك لي مهلة لأتذكر أي شيء ، أو أستخلص منها ما أريد...

ذهبت سريعًا، وسرعان ما عاد الضجيج حولي، وما زلت لا أفهم ما يحدث...

فلم يكن لي إلا أن أتأقلم بالظروف الجديدة....

بعد أن فارقت بلدي وذهبت إلى أخرى، لم يخطر ببالي يومًا أن آتي وأسكنها.

كل شيء تغير؛ وأصبح مختلفًا....

ومع كل هذا لم يجد اليأس طريقة إليّ ما دمت على قيد الحياة، لم يعد هناك شيء يزعجني أكثر....

صارت حياتي مثل الخيال... هل هذه هي الحياة عندما تكون جالسًا بكل هدوء ترتب أفكارك، محاولًا الاندماج مع المكان الجديد؟

ولكن؛ ثمّ صوتًا يمنعني يقول لي كيف حال الوطن ، وكيف حال بقية الأهل الذين لم يتمكنوا من الخروج؟

وطني، أراك اليوم حزينًا، وأنا اليوم ضعيفة، ضعيفة للغاية، أتعلم لماذا؟

لأنني لا أعرف ما أفعل حينها، كل ما عرفته هو الخروج و الهروب بعيدًا.. لا يوجد عام أسوأ من هذا العام.

كل شيء حولي بدأ بالتلاشي، لا أعرف ماذا يحدث، ولماذا ، وكيف؟

فقد أطرح على نفسي أسئلة ليس لها إجابة....

صرت اسأل نفسي هذا السؤال مراراً وتكراراً ولا أجد جواباً لما يحدث؟

أشلاء من الضحايا تسقط في كل يوم ، وكم من الأطفال الذين فقدوا أسرهم وأصبحو أيتام، فضلا عن الذين تاهو ولم يعرفوا لهم أثر حتي الآن ....

وهناك أسري يعذبون بغير ذنب وتلك الأصوات المرعبة التي لم أعد أحتمل سماعها أكثر ....

حدث في داخلي صمت أليم صمت لا يحتمل أي كلمة،أي مناقشة كأنه يقول ضعي عيناك تتحدث ....

صار قلبي يخفق بقوة مثل موجة من الخوف القاتل،

وشعور لا يوجد له تفسير ونفس لا تريد فعل شيء.....

هجرت الدموع عيناي، صارت جافة كأني أشاهد مسلسل حزين في نهايته جرف السيل كل من كان في المدينة....

ويوجد شخص يجري بكل ما أوتي من قوة لينجو.....

لم يكن يعلم شيئًا، كل ما عليه فعله هو أن يسلك هذا الطريق.

وعندما وصلت إلى نهايته، وقف يفكر، هذا الطريق طويل ، ونهايته مسدودة، عندها جلس ينظر إلي السماء للهدوء لونها.

فجأة بدأت الأرض تنشق أمامي ، فلم أتحرك من مكاني، بل وقفت أنظر وأتأمل حتى إنقسم الطريق أمامي وأصبح طريقين، عليّ أن أجتاز أحدهم أو أعود؛ لا مجال للتراجع بعد أن قطعت هذا الشوط الطويل.

فذهبت من الأيمن وواصلت السير حتى وصلت إلى مكان لا أجد فيه أحد سوى طول الطريق، ومع ذلك لم أيأس، واصلت ، فلم يكن لهذا الطريق أن ينتهي.

ما زلت لا أرى أحد يعبر الطريق غيري ، أنهكني التعب مع العطش والجوع ، فلم أعد قادرًا على الذهاب، ولم أستسلم، فهذا طريق اخترته بنفسي...

عليّ إكماله فجلست أطرح على نفسي بعض الأسئلة.

هذه لم يكن لها أن تنتهي ، ولم يكن لها إجابة كأنها مصنفة ضمن الاسئلة التي لا إجابة لها .

لقد كنت متعبًا كثيرًا، وكأني أسير في طريق غير معروف النهاية طويل بعد المشي المتعب ظهر أمامي وادي في الطريق الأخر ذلك الوادي هو الطريق للنجاه.....

وذلك الوداي التي أعبره مليئ بالمياه والأحجار حتي تمزق حذائي من شدة المشي ...

أشعر بالخوف والقلق، وهذه الأسئلة دون الإجابة تتعبني. هذا الجسد المتعب والروح المنطفئة والنفس التي تبحث عن أمل، كل هذا سيمضي...

سيمضي وتضيء شعلة النصر والسلام والامن.

هذا الوقت سيمضي، وتمضي معه كل الأحزان والمخاوف والألم والمواجع.

هذا الوقت سيمضي، ستشرق شمس الأمل من جديد، ستزهر البساتين من جديد، وستنبت الأشجار، وتُرفرف الفراشات عاليًا لتتغذي برحيق الزهور.

برغم الصعاب فإن في الأمل حياة